ابراهيم المضف

١٢٦٧ — ١٣٤٥ هـ

« صعب على المترجم أن يترجم لمثل هؤلاء الموهوبين الذين لم يتخرجوا من جامعات أو معاهد عالية . وأكثر ما نجد هؤلاء في العهود التي لا معارف بها ولا علوم ، لذا نعد وجودهم رحمة ونبراسا وهدى لذلك العهد ، فمن الظلم أن ننسى هؤلاء وقد أسهموا بأموالهم وأنفسهم في خدمة المجتمع ، لا يبتغون وراء ذلك جزاء ولا شكوراً . . . »

التاجر المعروف ، والحازم اللبيب ، ولد في بيت رفيع عام ١٢٦٧ هـ واشتغل بعد أن اشتد ساعده ربانا وتاجر لؤلؤ فاستفاد من ذلك مالا جزيلا ، واشتهر بصدقه وصراحته وحزمه وإنصافه ، وبذلك مثل في شخصه التاجر الكويتي الشريف . . .

أناط به حكام الكويت ، مدة من الزمن الفصل بين الغواصين ، الملاحين والربابنة ، وكان هذا العمل في ذلك الوقت عظيما ، لأن جل البلاد تعيش من مورد البحر إذ ذاك ، ولو بقي الأمر كما كان فإنه يشغل أكثر من دائرة هذا اليوم ، إلا أن الفقيد بما عرف عنه من رجاحة في العقل وتصريف للأمور قام بالفصل بين هؤلاء وحده ، لا يعاونه في ذلك أحد ، فينصرف الخصمان وكل منهما راض بما حكم الفقيد ، ثقة فيه واعتقاداً ، حتى قال حاكم الكويت آنذاك الشيخ جابر المبارك ، والد سمو حاكمنا الحالي ، « إننا نعجب أن الخصمين ينصرفان معا وأحدهما راض والآخر ساخط ، وهذه السنة التي يجب أن تكون منذ أن كان العدل ، إلا أنك يا ابراهيم ينصرف الخصمان منك وهما راضيان بما حكمت . . . » وهذه الشهادة العالية كافية بأن تعرف مقام هذا المصلح لدى أمراء البلاد ومواطنيه في وقته .

وبالرغم من مشاغله الجمة فإن مجلسه « ويسمى الكويتيون المجلس بالديوان » لا يكاد يغلق ، وإن غاب فأولاده يحلون محله ، لاستقبال الزائرين والأضياف متبعين في ذلك سنة الآباء ، فان الجواد جواد ، وشنشنة أعرفها من أخزم . . .

وكان آية في معرفة اللآلىء ، ماهراً في نقدها ، حتى إن كبار تجار اللؤلؤ كشملان بن سيف وهلال المطيري يستشيرونه في الصفقات الكبيرة ، فكان صادق الحدس والتخمين في تثمينه . وكان إلى جانب هذا دليلا ماهراً في الخليج لا بحاري وبالأخص في « بحر العدان » على صعوبته وعدم وجود خرائط توضحه .

ونود في هذه الترجمة السريعة أن نكشف جانبا حيويا من جوانب هذه الشخصية الكبيرة ذلك هو قوة الصبر والاحتمال عند هذا الرجل الكبير الجواد . حدثني أحد أصدقائه ، قال : دخلت عليه للتعزية وقد غرق له بالبحر ابن يدعى عبد اللطيف وحفيدان ودخلت عليه حين جاءه نعي ابنيه قتيلي الصريف مضف وعثمان (عام ١٣١٨ هـ) ودخلت عليه حين جاء الخبر بقتل إبنه مهلهل في حادثة الجهري (عام ١٣٣٩) فألفيته في كل مصيبة من هذه المصائب العظمى الثلاث يستقبل المعزين بوجه لا أثر للحزن فيه وبابتسامة تعبر عن ثقة المؤمن الموقن بأن المصائب لا حول لأحد في دفعها فخير للمرء عنده أن يصبر ويحتسب فيؤجر من أن يظهر حزنه وضعفه . فكأنه اختار ما اختاره أبو تمام :

أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

على أننا لا يسعنا إلا أن نعجب من هذا الصبر والاحتمال في رجل اشتهر بالرحمة والعطف على الناس ، فما بالك في عطفه وحبه لفلذات كبده ؟ . إن في هذا تفسيراً وحلا لمعنى الصبر . . .

توفي رحمه الله عام ١٣٤٥ هـ وقد أشرف على الثمانين .

« شرقاوي »